

ملحات من التراث الاجتماعي لبيت المقدس

جمع وتحرير
آية محمد يوسف

(مشروع رمضان والأقصى لعام ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م)

تحت شعار

رمضان أحلى مع الأقصى

مقدمة

لمحات من التراث الاجتماعي لبيت المقدس

هذه لمحات متفرقة جمعتها من بطون كتب التراث المرتبطة ببيت المقدس للنشر في شهر رمضان المبارك لعام ١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م احتفاءً بالشهر الكريم، وسيرا على درب (مشروع رمضان والأقصى) الذي حاولت فيه على مدار سنوات سابقة، وبالتعاون مع موقع أخوات من أجل الأقصى (www.foraqsa.com)، إعداد مواد علمية عن المسجد الأقصى تربط بركة الزمان (رمضان) ببركة المكان (المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله)، بهدف استشراف مستقبل هذا المسجد المشرق بالتحريير والنصر بإذن الله، وفي محاولة للاقتراب منه خاصة في شهر رمضان الذي يحظى فيه بأضخم حركة شد رحال ورباط وإعمار على مدار العام من جانب أهل فلسطين، رغم ظروف الاحتلال والحصار والتعتيم الإعلامي.

وقد كان مشروع (الأقصى ورمضان) فاتحة خير علي بتجميع مادة معلوماتية عن المسجد الأقصى شاملة جمعت بين الفضائل الدينية والمعارف التاريخية والجغرافية والإعلامية وضعتها بين دفتي كتاب أسميته (المسجد الأقصى المبارك - فضائل ومعارف) طبعته بفضل الله عام ٢٠١٥م. وهذا الكتاب بحمد الله حظى بتعليقات كثيرين نبهوا إلى افتقاره إلى البعد الاجتماعي الإنساني.

ولذا، جاءت هذه اللمحات الاجتماعية التسع في هذا الرمضان تتضمن اقتباسات من مؤرخين دونوا تاريخ القدس وجغرافيته في العصرين الوسيط والحديث لتطوف بالقارئ بين جوانب مجتمعية غالباً ما لا تركز عليها كتب التاريخ العام السياسي. من هذه القطوف ما أشار إلى مكارم أخلاق الفاتحين الأوائل لبيت المقدس، وإلى مميزات القائميين على الفتح الثاني بعد الاحتلال الصليبي، ومنها ما اهتم بالمعالم الأثرية الرائعة لبيت المقدس، ومنها ما أشار إلى سلبيات اجتماعية انتشرت بسبب الخلافات للسياسية بين المسلمين أو نتيجة تتابع الحروب الصليبية، وساهمت في تزايد الفرقة بين طوائف المجتمع في العالم الإسلامي، وخلخلة البنية الثقافية لهذا المجتمع تدريجياً، مما كان له أثر في استفحال الضعف السياسي والعسكري والعلمي في العالم الإسلامي منذ بدايات العصر الحديث.

كما لم تغفل هذه اللمحات كتابات الرحالة والمستشرقين النصارى ممن زاروا القدس أو استوطنوها والتي تمثل جزءاً من تاريخ هذه المنطقة ذات الأهمية الاستراتيجية في العالم.

فرحلة سعيدة مع هذه القطوف الاجتماعية من تاريخ بيت المقدس ...

آية يوسف

مصر الجديدة، القاهرة

أغسطس ٢٠١٩م

١- أمانة الفاتحين وتحرزهم عن أموال نصارى بيت المقدس

يحكي المؤرخ الواقدي - في كتابه "فتوح الشام" الجزء الأول باب "ذكر ما جرى مع عمر في مسيره إلى بيت المقدس" - عن دخول عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- بيت المقدس صلحا بعد طول حصار. فيذكر قصة لطيفة تؤكد كيف كانت أخلاق الفاتحين العظيمة، وخاصة خلق الأمانة، وعدم تطلعهم إلى ما في يد المهزومين على قلة ما في أيدي الفاتحين، سببا في استقرار الفتح الإسلامي في هذه المنطقة، لتكون قاعدة لانطلاقهم بعدها في مشارق الأرض ومغاربها. وهذا ملخص القصة..

فقد قال بعض الروم لبعضهم نغدر بالعرب المسلمين أثناء انشغالهم بصلاة الجمعة بعد فتح بيت المقدس وليس معهم آلة حرب ولا ما يحتززون به من الضرب والقتل. فقال لهم ناصح منهم: "يا قوم لا تفعلوا ولا تغدروا بهم (..) ولكن أظهروا للعرب ما لكم من الزينة ومتاع الدنيا فإن متاع الدنيا وما فيها لا يصبر صاحبها عنهما، فإن طلبوهما بغدر فشأنكم وما تريدون".^١

ويتابع الواقدي: "فأقبل القوم على ما كانوا يقدرون عليه من المال والمتاع الحسن فأظهروه وصفوه في طريق المسلمين وشوارعهم، فجعل المسلمون ينظرون إلى ذلك في دخولهم وخروجهم وهم يعجبون منهم، ولم يمل أحد منهم إليه، ولم يلمسه، وهم يقولون: "الحمد لله الذي أورثنا ديار قوم مثل هذا، ولو ساوت الدنيا عند الله جناح بعوضة لما سقى كافراً منها شربة ماء"، قال عوف بن سالم: "فوالله ما من المسلمين من جعل يده على شيء من متاعهم ولا لمسه".

فقال ناصح الروم: "هؤلاء القوم الذين وصفهم الله في التوراة والإنجيل وأنهم لا يزالون على الحق ولا يقربهم أحد ما داموا على ما هم عليه".

^١ الواقدي: محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧هـ)، فتوح الشام، الجزء الأول، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية ٢٠١٠م، ص ٢٠٨-٢٠٩.

٢- إشادة العباسيين بالأمويين لعنايتهم ببيت المقدس

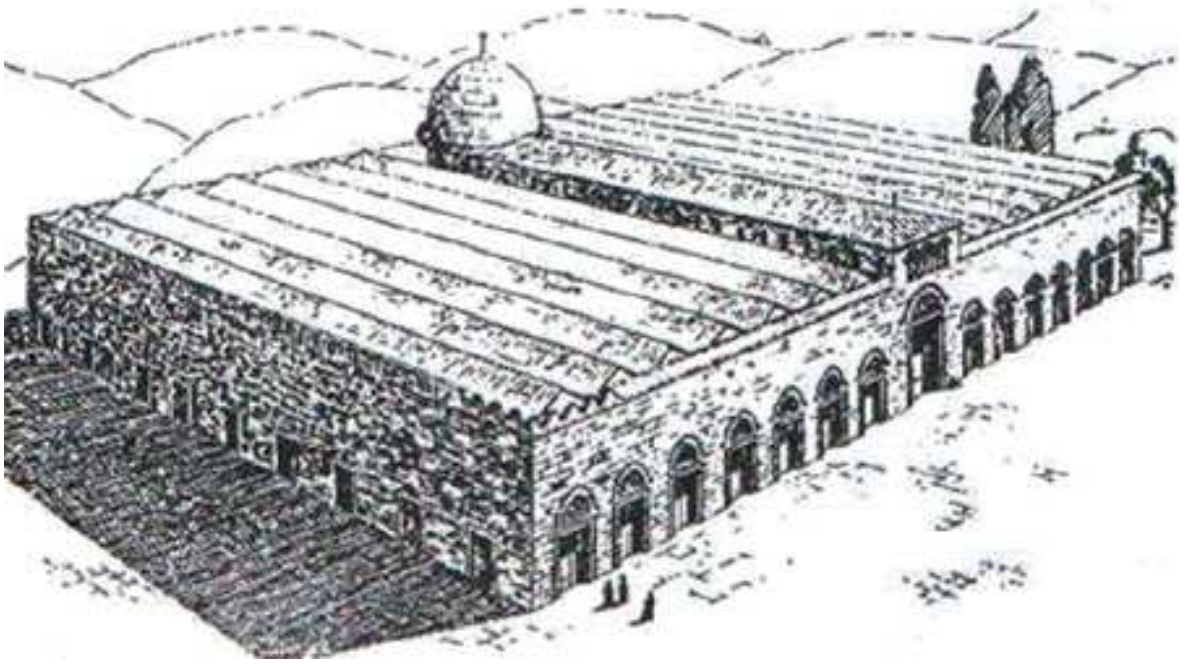
في كتابه "مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام"، ذكر شهاب الدين ابن تميم المقدسي (ت ٧٦٥هـ/١٣٦٣م) عددا ممن ورد القدس الشريف من الأنبياء والأعيان. ومن جملة من ذكرهم: المهدي بن المنصور، وهو ثاني خليفة عباسي زار المسجد الأقصى بعد أبيه المنصور. وحول هذه الزيارة يقول الكتاب ما يلي:^١

"لما قدم المهدي الشام يريد بيت المقدس، دخل مسجد دمشق ومعه أبو عبد الله الأشعري، فقال يا أبا عبد الله: "سبقتنا بنو أمية بثلاث:" فقال "وما هي يا أمير المؤمنين؟" قال: "بهذا البيت، يعني مسجد دمشق ولا أعلم على ظهر الأرض مثله، وبنبل الموالي، فإن لهم موالي ليس لنا مثلهم، وبعمر بن عبد العزيز ولا يكون فينا والله مثله أبدا، ثم أتى بيت المقدس فدخل الصخرة فقال يا أبا عبد الله، وهذه رابعة."

وفي موضع سابق من الكتاب، يتحدث عن اهتمام المهدي أيضا بالمبنى الرئيسي في المسجد الأقصى والذي كان قد خرب بسبب رجفتين في عهد المنصور الأولى في بداية عهده وجدده بعدها والثانية أتت على ذلك التجديد السابق، قال المقدسي:^٢ "فلما قدم المهدي من بعد وهو خراب، فرفع إليه ذلك، فأمر ببناؤه، فقال: دق هذا المسجد وطال وخلا من الرجال انقصوا من طوله، وزيدوا في عرضه، فتم البناء في خلافته."

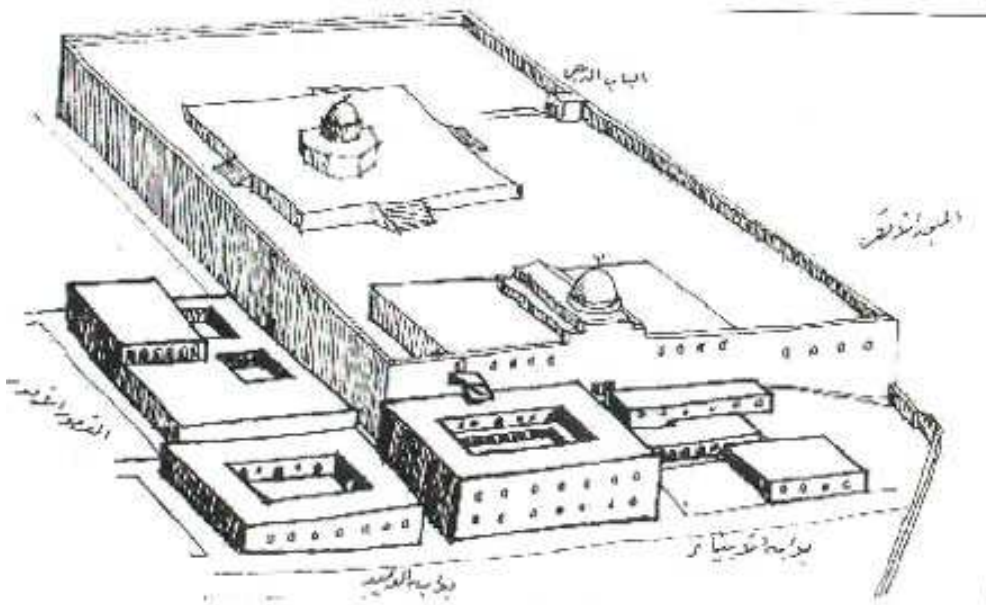
وهذا النص يشير إلى التشييد الأموي العظيم لمسجد بيت المقدس، والذي تضمن بناء قبة الصخرة في منتصف المسجد وبناء المبنى الرئيسي في جداره القبلي الجنوبي، كما يشير إلى عناية العباسيين به وبزيارته وإعمارهم، رغم انتقال عاصمة الدولة الإسلامية في عهدهم من الشام إلى العراق. إضافة إلى ذلك يشير النص إلى احتمال أن يكون الترميم العباسي أو لاحقا الفاطمي أو الأيوبي للمبنى الرئيسي للمسجد الأقصى قد تضمن إدخال تعديلات على الأساس الأموي. والحقيقة أن الأثرين يؤكدون أن المبنى الرئيسي القائم حاليا في المسجد الأقصى ليس المبنى الأصلي الأموي. وهذا يرجع إلى كثرة ما تعرض له هذا المبنى بالذات من زلازل وهزات أرضية أثرت على بنائه، خاصة وأنه مقام على تسوية من صنع البشر وليس على أرضية جبل المسجد الأقصى الأساسية، مثل مبنى قبة الصخرة القائم في منتصف المسجد، وذلك بسبب انحدار المنطقة الجنوبية من المسجد بدرجة كبيرة عن منطقة وسط المسجد.

١ المقدسي: شهاب الدين أبو محمود بن تميم (ت ٧٦٥هـ)، مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ص ٣٥٦.
٢ المرجع السابق، ص ١٧٦ - ١٧٧.



المبنى الرئيسي في المسجد الأقصى في مخطط تخيلي وضعه كرسويل لما كان عليه المبنى أيام الأمويين، حيث كان يضم ١٥ رواقا تم تقليصها إلى ٧ أروقة في عصور لاحقة (المصدر: عبدالله معروف عمر، المدخل إلى دراسة المسجد الأقصى المبارك، دار العلم للملايين، بيروت ٢٠٠٩م، ص ١٠٣)

مخطط تخيلي للمسجد الأقصى والقصور الأموية في العصر الأموي



المسجد الأقصى كاملا في عهد الأمويين تجاوره من الجنوب دار الإمارة (المصدر: دليل المسجد الأقصى المبارك، ص ٣٣)



المبنى الرئيسي في المسجد الأقصى كما هو عليه اليوم
(المصدر: الموقع الشبكي www.foraqsa.com)



المسجد الأقصى كاملاً كما هو عليه اليوم
(المصدر: الموقع الشبكي www.foraqsa.com)

٣- خلفية من العصر العثماني عن تسميات بعض المعالم في فلسطين

كانت الطرق الصوفية واسعة الانتشار في ولايات الدولة العثمانية ويحظى المنتسبون لها بالقبول لدى الخاصة والعامة إضافة إلى أن التلقي عن شيوخها كان من متممات التحصيل العلمي بعد الأزهر الشريف بمصر خلال العصر العثماني الذي امتد ٤ قرون في بلاد الشام. ومن أشهر العلماء المتصوفة في ذلك العهد الشيخ محمد الخليلي (ت ١١٤٧هـ/١٧٣٤م). فهذا الشيخ له خلوة خاصة به تعرف بقبة الشيخ الخليلي، كما تعرف بقبة "بخ بخ"، وهي إحدى القباب المجاورة لقبة الصخرة في قلب المسجد الأقصى بالقرب من قبة المعراج. حيث كان الشيخ يعتزل فيها ويقوم حلقات الذكر صحبة مردييه.

وفي رسالة/ كتيب منسوب له بعنوان (تاريخ القدس والخليل عليه السلام) مهداة إلى أحد أمراء سنجق القدس العثماني، يقدم الشيخ محمد الخليلي لمحة عن حال القدس وفلسطين في القرن ١٨م. وفي معرض تتبعه لقري ومدن فلسطين، يفسر سبب تسمية بعض النواحي فيها باسم "الخرب"، مثل خربة اللوز، وخربة العمور، وخربة الشيخ سعد بالقدس. يقول^١:

"ثم إن السلطان صلاح الدين لما فتح هذه البلاد واستولى عليها، خرب بعض البلاد، وبعضها خربها، بل معظمها، الإفرنج. أما ما خرب السلطان صلاح الدين، فكان إما لضرورة القتال وإما مخافة أن يستولي عليه الإفرنج فيعسر أخذه منهم ثانياً (..) وأما ما خرب الإفرنج، خرب الله ديارهم، فمنه ما كان للقتال، ومنه ما كان لقتل أهله، ومنه ما كان لجلاء أهله. أما المسلمون فلبلاذ بعيدة حتى يقال أنهم لما استولوا على القدس، الذي هرب من أهلها، إنما توجه للعراق في البوادي. وأما النصاري فكانوا يدخلون في بلادهم مثل مالطا، دمرها الله، وقبرص سابقا لما كانت بأيديهم، حتى يقال أن أهل مالطة اليوم كلهم من بلاد القدس وأطرافها، ولكن، لله الحمد، كل ذلك كان قبل ملك آل عثمان لهذه الديار."

وهذا النص يشير إلى أن تخريب بعض نواحي فلسطين قد وقع من بعض الأيوبيين خلال تصديهم لأكثر من ٥ حملات صليبية على الشام ومصر في عهدهم، كما نلمح منه ومن جملة نصوص الكتاب نعمة النعمة على الإفرنج (أي الصليبيين) الذين كانوا قد بدءوا يعودون إلى الاهتمام ببيت المقدس في زمن ضعف الدولة العثمانية، ويظهرون العداء لها.

^١ الخليلي: شمس الدين محمد بن محمد بن شرف الدين (ت ١١٤٧هـ/١٧٣٤م)، تاريخ القدس والخليل عليه السلام، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص ١٧٥-١٧٦.

٤- في وصف المسجد الأقصى وسبب عدم امتداد مصلاه القبلي حتى السور الشرقي

في وصفه للمسجد الأقصى في كتابه الجغرافي الموسوعي المهم "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، والذي يسبق وصف المتأخرين مثل شهاب الدين المقدسي صاحب "مثير الغرام" المذكور سابقا في هذه الورقة، يذكر الرحالة المقدسي البشاري المتوفى عام ٣٨٠ هـ أن المبنى الرئيسي في المسجد الأقصى والذي أسماه بـ"المغطى" -ويقصد به المبنى الذي يعرف اليوم بالجامع القبلي والذي تم تجديده مرارا في العهد العباسي وغيره، يقع في الجدار القبلي الجنوبي للمسجد الأقصى ولكنه لا يمتد بطول هذا الجدار الجنوبي من الشرق إلى الغرب، كما هو المعمول به في كثير من المساجد الأثرية حيث يمتد رواق القبلة بطول جدار القبلة.

ونفهم من وصف المقدسي البشاري أن هذا المبنى الجنوبي المغطى، والذي تم تجديده في عهد العباسيين وغيرهم ممن تلاهم من حكام المسلمين، كان شديد القرب من الحائط الغربي للمسجد الأقصى دون الحائط الشرقي للمسجد. وقد اهتم هذا الرحالة بمحاولة تعليل عدم اتصال هذا المبنى بالحائط الشرقي وعدم توسطه لجدار القبلة الجنوبي تماما، فيقول:^١

"والمغطى لا يتصل بالحائط الشرقي، ومن أجل هذا يقال لا يتم فيه صف أبداً وإنما ترك هذا البعض لسببين: أحدهما قول عمر اتخذوا في غربي هذا المسجد مصلى للمسلمين فتركت هذه القطعة لثلا يخالف، والثاني أنهم لو مدوا المغطى إلى الزاوية لم تقع الصخرة حذاء المحراب فكرهوا ذلك والله أعلم."

والحقيقة أن أعمال البناء الأموي للمسجد الأقصى والتي تمت على يد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد بدأت بإقامة قبة الصخرة فوق صخرة طبيعية من صخور جبل المسجد الأقصى في منتصفه، ثم تم بناء المبنى الرئيسي "المغطى" فوق تسوية للأرضية المنحدرة في جنوبه. وقد حرص البناؤون على جعل قبة المبنى الرئيسي محاذاة لقبة الصخرة بحيث تقع القبستان على محور شمالي جنوبي واحد، بما يعطي المسجد الشكل المنتسق الذي نراه عليه اليوم.

ويعد الوصف المفصل للمسجد الأقصى ومبناه القبلي الذي قدمه صاحب "أحسن التقاسيم" مهما لأنه يوضح أن هذا المبنى الرئيسي في المسجد الأقصى كان يضم ١٥ رواقا في أيامه بدلا من ٧ أروقة

^١ المقدسي: شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء البشاري (ت ٣٨٠هـ)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار صادر، بيروت، نقلا عن مطبعة بريل في مدينة ليدن، ١٩٠٦م، ص ١٧٠-١٧١.

كما ورد في وصف العلامة الموسوعي مجير الدين العليمي الحنبلي المتوفى عام ٩٢٧هـ^١ وكما هو عليه الحال اليوم. ولعل الترميمات الكثيرة التي تعرض لها هذا المبنى هي التي أدت إلى تقصير امتداده بين الشرق والغرب، ولعلها تمت في عصر الفاطميين في زمن لاحق لزمن البشاري المقدسي، حيث حدثت هزات أرضية عديدة وتم تجديد البناء كما يشير نقش أثري لا يزال ظاهرا على المبنى يؤرخ لترميم في عهد الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١-٤٢٧هـ)^٢.

^١ مجير الدين: القاضي أبو اليمن الحنبلي العليمي (ت ٩٢٧هـ)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مكتبة دنديس، الخليل، ٢٠٠٩م/١٤٣٠هـ، المجلد الثاني، ص ٤٥.

^٢ انظر: محمد هاشم موسى غوشة، تاريخ المسجد الأقصى، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، فلسطين، ص ١٤.

٥- عدل نور الدين وجهاده مهذا فتح القدس على يد صلاح الدين

كتب المحدث المؤرخ شهاب الدين المقدسي (ت ٦٦٥هـ) المعروف بأبي شامة كتاباً أسماه "الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية"، ركز فيه على سيرة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي (ت ٥٦٩هـ) وخلفه الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب (ت ٥٨٩هـ)، إذ يقول في المقدمة^١ "فوجدتهما في المتأخرين كالعمرين رضي الله عنهما في المتقدمين. فإن كل ثان من الفريقين حذا حذو من تقدمه في العدل والجهاد، واجتهد في إعزاز دين الله أي اجتهاد". وقد رأى أنهما حجة من الله على الملوك المتأخرين، وذكرى منه سبحانه، وأضاف "فإن الذكرى تنفع المؤمنين، فإنهم قد يستبعدون من أنفسهم طريقة الخلفاء الراشدين ومن حذا حذوهم من الأئمة السابقين (..) فكان لما قدر الله سبحانه من سيرة هذين الملكين إلزام الحجة عليهم بمن هو في عصرهم من بعض ملوك دهرهم".

ثم يعدد الكاتب أوجه التشابه بين الرجلين ويذكر أن الفضل للمتقدم أي لنور الدين، فيقول: "فإنه أصل ذلك الخير كله مهد الأمور بعدله وجهاده، مع شدة الفتق واتساع الخرق"^٢.

وينقل أبو شامة في الفصل الأول من كتابه الكثير في عدل نور الدين، خاصة عن كاتب آخر هو ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ)، فيقول:^٣ "ومن عدله أنه لم يكن يعاقب العقوبة التي يعاقب بها الملوك في هذه الأعصار على الظنة والتهمة بل يطلب الشهود على المتهم فإن قامت البينة الشرعية عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعد، فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة والأخذ بالظنة، وأمنت بلاده مع سعتها، وقل المفسدون ببركة العدل واتباع الشرع المطهر".

ومما حكاه عن نور الدين أنه أول من بنى دار العدل، قال:^٤ "وكان سبب بنائها أنه لم طال مقامه بدمشق وأقام بها أمراؤه وفيهم أسد الدين شيركوه وهو أكبر أمير معه وقد عظم شأنه وعلا مكانه حتى صار كأنه شريك في الملك واقتنوا الأملاك وأكثروا، تعدى كل واحد منهم على من يجاوره في قرية أو غيرها فكثرت الشكاوى إلى القاضي كمال الدين فأنصف بعضهم من بعض ولم يقدر على الإنصاف من أسد الدين شيركوه فأنهى الأمر إلى نور الدين فأمر حينئذ ببناء دار العدل. فلما علم أسد الدين بذلك، جمع نوابه فاشتد عليهم ليردوا المظالم وهددهم إن أحضر إلى دار العدل بسبب أحدهم ليصلبته، فردوا المظالم، حتى إذا اكتمل بناء الدار، وجلس فيها نور الدين لم يأت أحد يشكو

^١ المقدسي: شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل ابن إبراهيم الشافعي (ت ٦٦٥هـ)، الروضتين في أخبار الدولتين، الجزء الأول، دار الجيل، بيروت، ص ٤.

^٢ المرجع السابق، ص ٤.

^٣ المرجع السابق، ص ٧.

^٤ المرجع السابق، ص ٨.

من أسد الدين، فتعجب، ولما عرفه كمال الدين الحال، سجد وشكر الله وقال الحمد لله الذي جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا."

ونقل أبو شامة تعليق ابن الأثير على هذه الحكاية فقال: ^١ "فانظر إلى هذه المعدلة ما أحسنها وإلى هذه الهيئة ما أعظمها وإلى هذه السياسة ما أسدها هذا مع أنه كان لا يريق دما ولا يبالغ في عقوبة وإنما كان يفعل هذا صدقه في عدله وحسن نيته."

^١ نفس المرجع السابق.

٦- استحواذ الفرنج على بيت المقدس عقوبة على إظهار اللعن للصحابة أيام تسلط الشيعة

الإمام الحافظ ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) صاحب كتاب "البداية والنهاية" في التاريخ، هو أيضا صاحب التفسير الشهير "تفسير القرآن العظيم"، والذي يعد من أبرز كتب التفسير بالمأثور. وفي البداية والنهاية والذي رتبه حسب السنين، يتحدث ابن كثير عن أحداث سنة ٣٥١هـ ومنها ظهور بدعة سيئة في تلك الفترة التي كان فيها آل بويه الشيعة قد سيطروا على دار الخلافة العباسية في العراق، بينما حكم بنو حمدان العرب حلب بشمال الشام، وظهر فيهم أيضا ميل للتشيع والرفض، وهي أيضا فترة سبقت بقليل سيطرة الفاطميين الشيعة على مصر وجنوب الشام.

يقول ابن كثير:^١

"وفيها كتبت العامة من الروافض على أبواب المساجد لعنة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وكتبوا أيضا: ولعن الله من غصب فاطمة حقها، وكانوا يعنون أبا بكر ومن أخرج العباس من الشورى، يعنون عمر (..) ولما بلغ ذلك جميعه معز الدولة ابن بويه لم ينكره ولم يغيره، ثم بلغه أن أهل السنة محوا ذلك وكتبوا عوضه لعن الله الظالمين لآل محمد من الاولين والآخرين، والتصريح باسم معاوية في اللعن، فأمر بكتب ذلك، قبحه الله وقبح شيعته من الروافض".

ويعقب ابن كثير على هذه الأحداث بقوله:^٢

"لا جرم أن الله لا ينصر أمثال هؤلاء، بل يديل عليهم أعداءهم لمتابعتهم أهواءهم، وتقليدهم سادتهم وكبراءهم وآباءهم وتركهم أنبياءهم وعلماءهم، ولهذا لما ملك الفاطميون بلاد مصر والشام، وكان فيهم الرفض وغيره، استحواذ الفرنج على سواحل الشام وبلاد الشام كلها، حتى بيت المقدس، ولم يبق مع المسلمين سوى حلب وحمص وحمه ودمشق وبعض أعمالها، وجميع السواحل وغيرها مع الفرنج، (..) والناس معهم في حصر عظيم، وضيق من الدين، وأهل هذه المدن التي في يد المسلمين في خوف شديد في ليلهم ونهارهم من الفرنج، فإننا لله وإنا إليه راجعون وكل ذلك من بعض عقوبات المعاصي والذنوب، وإظهار سب خير الخلق بعد الانبياء".

فرغم أن سيطرة آل بويه على بغداد بدأت سنة ٣٣٤هـ وأن سيطرة الفاطميين على مصر وبيت المقدس بدأت سنة ٣٥٨هـ، ورغم أن الحملات الصليبية بدأت بعد أكثر من ١٣٠ سنة من تلك الوقائع، وبل وجاءت بعد أن أزال السلاجقة السنة سلطان آل بويه الشيعة عن العراق عام ٤٤٧هـ وأدبوا الروم البيزنطيين في آسيا الصغرى، يربط هذا العالم الجليل بين هذه الأحداث التي تفصلها

^١ ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، دار الحديث، القاهرة، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، المجلد ١١-١٢، الجزء ١١، ص ٢٥٦.

^٢ نفس المرجع السابق.

عقود طويلة، ويرى الخلل المجتمعي الأخلاقي الذي ساد في أيام بني بويه وبني حمدان والفاطميين، سببا فيما أصاب المسلمين في بيت المقدس والشام ومصر على يد الفرنج، من بلاء وكرب استوى فيه الفاطميون والسلاجقة والشيعة والسنة على السواء.

والحق أن القرون التالية ستثبت - في المقابل - أن خصوم الفاطميين، خاصة السلاجقة السنة - رغم تفككهم وانحسار ملكهم عن الشام والعراق - قد خلفوا إرثا فكريا وثقافيا عظيما سيستفيد منه خلفاؤهم الزنكيون فالأيوبيون فالمماليك لدر - ليس فقط الخطر الصليبي - بل والمغولي اللاحق أيضا عن قلب العالم الإسلامي في الشام ومصر والحجاز.^١

^١ لمزيد من التفصيل حول دور السلاجقة السنة والمدارس النظامية التي أنشأوها في نيسابور وبغداد وغيرها من المدن الإسلامية في الإحياء الفكري للأمة وفي الإصلاح وفي قيادة الجهاد ضد الصليبيين، انظر: ماجد عرسان الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، دار القلم، دبي، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص ١٠٣. وانظر كذلك: الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية، المجلد الثالث: الأوج والازدهار - القسم الثاني: التنظيم والازدهار الحضاري، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - فبراير ٢٠١٠م، ص ٣٦٦-٣٦٩. وانظر أيضا: الصلابي: علي محمد، دولة السلاجقة، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ٢٠٠٦م/١٤٢٧هـ، ص ٢٧٧.

٧- رحلة الراهب سيمون إلى مصر والشام تحت الحكم العثماني وتشابه الحركة الصهيونية بالصلبية

كما أن للمسلمين أشواقا تجذبهم إلى القدس، مهبط الأنبياء، فإن للنصارى واليهود أيضا أشواقا مماثلة عبرت عنها رحلات حج وأسفار رحالة تمت أثناء الحكم الإسلامي للمدينة والذي امتد على مدى ١٤ قرنا متصلة (باستثناء فترة الحملات الصليبية التي استمرت ٢٠٠ عام تقريبا وانتهت على يد الأيوبيين فالمماليك، ثم فترة الاحتلال الصهيوني الحالي منذ عام ١٩١٧م). من هذه الرحلات رحلة الراهب الأرمني البولندي "سيمون" التي دونها هذا الراهب بلغته الأرمنية ثم ترجمت إلى التركية، ومنها نقلها إلى العربية الدكتور محمد حرب أستاذ التاريخ والدراسات العثمانية في الجامعات المصرية والتركية، ونشرت كأحد كتب سلسلة الهلال، عن مؤسسة دار الهلال في القاهرة في مايو ٢٠٠٧.

استمرت هذه الرحلة ١٢ عاما بدأت عام ١٦٠٨ من بولندا وصولا إلى العاصمة العثمانية استانبول، حيث قضى سيمون ٧ سنوات في منطقة تركيا والأناضول قبل أن يتمكن من الانضمام إلى رحلة حج تنقل فيها بطريق البحر إلى رودس، فمصر، ومنها بالطريق البري إلى القدس، فسوريا وحلب، ومن ثم العودة إلى الأناضول فاستانبول فبولندا.

وفي نهاية الباب الثاني من رحلته بعنوان "مصر" وعلى أعتاب الباب الثالث بعنوان "القدس"، يذكر سيمون أنه وصل إلى منطقة قبر النبي صموئيل قادما من الرملة في طريقه إلى القدس. ويضيف:

"وفي قبر النبي صموئيل، وهو قبر في قمة جبل صخري مرتفع، يتجمع اليهود كل يوم سبت ويديرون وجوههم نحو الجنوب، ويصيحون قائلين: "أيها المسيح، ملك إسرائيل، تعال".

"صعدنا إلى قمة أخرى تشرف على مدينة القدس، أحسنا بفرحة كبيرة، عندما رأينا معبد سليمان وكنيسة القيامة، بكيت من فرط تأثري، ارتقيت على الأرض ساجدا وشكرت الله الذي أنالني هذا الأمل الكبير."

يتضح من هاتين الفقرتين اتصال الدعاوى الصهيونية بالدعاوى الصليبية في ذلك الوقت المبكر من القرن السابع عشر، فالراهب الأرمني ينقل عن اليهود وصفهم للمسيح الذي لا يزال منتظرا بالنسبة لهم بأنه "ملك إسرائيل"، ويقصد بكلمة "إسرائيل" هنا بني إسرائيل الذين أرسل الله سبحانه فيهم

^١ رحلة الراهب سيمون إلى مصر والشام، ترجمة محمد حرب، كتاب الهلال، العدد ٦٧٧، مايو ٢٠٠٧، دار الهلال، القاهرة، ص

كثيرين من الأنبياء، منهم موسى وعيسى عليهما السلام، وجعل منهم ملوكا كداود وسليمان عليهما السلام.

وفي الفقرة التالية وفي وصفه للقدس، يقول الراهب سيمون إن أهم ما طالعه فيها "معبد سليمان"، وكنيسة القيامة، وهو يقصد بـ "المعبد" المسجد الأقصى، حيث استخدم نفس التسمية التي وردت في المصادر الصليبية كثيرا، والتي استبق بها الصليبيون الدعاوى الصهيونية اليوم بكون المسجد الأقصى أرض "المعبد اليهودي"، ونسبتهم فرقة من فرقهم الدينية العسكرية إلى المسجد، هي فرقة فرسان المعبد Templars.

ويذكر كتاب هذه الرحلة بالإشارات المهمة إلى العلاقات بين المسلمين والنصارى، والتمييز بين مختلف الشعوب المسلمة التي قابلها الراهب في ذلك، ومن ذلك قوله تحت عنوان فرعي "المصاعب التي يعانها النصارى" ضمن الباب الثالث^١:

"عند العرب تعصب لا تعرفه تركيا ولا إيران، وعلى هذا فركوب النصارى البغل والأفراس ممنوع، والنصارى لا يستطيعون أن يركبوا إلا الحمير، وهم يحترمون الجمل كثيرا، لأن حضرة محمد قد ركبه".

والجدير بالذكر أن الحملات الصليبية في القرون الوسطى أثرت سلبا على العلاقات بين النصارى والمسلمين على اختلاف شعوبهم، لمدة طويلة بعد انتهائها، خاصة داخل المنطقة العربية التي اكتوت بنيران تلك الحملات. وقد يكون من صدى ذلك ما أورده سيمون عن عدم المساواة بين الجانبين في الركوبة في مصر أو في القدس، في تلك الفترة. وفي القرون التالية، ومع ضعف الدولة العثمانية، سيتم استغلال مثل هذه الإشارات السلبية من جانب الأوساط الحاكمة في أوروبا لفرض نفوذها في المنطقة بعد ذلك وإقامة دولة "إسرائيل" الصهيونية.

^١ المرجع السابق، ص ١٧٠.

٨- المؤرخ مجير الدين المقدسي وصورة واقعية لعصور الضعف

صنّف العالم الفقيه المؤرخ مجير الدين الحنبلي العليمي المقدسي (ت ٩٢٧هـ/١٥٢٠م) كتاباً مهماً يعتبر مرجعاً في تاريخ القدس باسم "الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل" يندرج تحت تصنيف "التاريخ المحلي" الذي يعنى بتاريخ إقليم بعينه من أقاليم الدولة الإسلامية، والذي كثر التصنيف فيه في عهود الدويلات المستقلة التي حكمت في المشرق والمغرب الإسلاميين منذ العصر العباسي الثاني، مقارنة بكتب "التاريخ العام" التي تعنى بتاريخ دول الإسلام بصفة عامة. يحمل هذا الكتاب المطبوع في مجلدين كبيرين ملامح كثيرة تشير إلى الضعف العام الذي استشرى في أواخر حكم دولة المماليك الثانية (البرجية)، ومهد لبسط العثمانيين سيطرتهم على مصر والشام في أوائل القرن ١٦م/١٠هـ وهو ضعف ترجع جذوره إلى عهد أقوى وأبرز سلاطين هذه الدولة، وهو "الأشرف قايتباي"، كما يعتبر هذا الضعف نموذجاً لعصور الضعف في تاريخ المسلمين بصفة عامة.

ففي الجزء الذي يؤرخ فيه مجير الدين للأحداث المعاصرة له بطريقة حولية^١ بداية من عام ٨٧٢ - وهو عام تولي قايتباي الحكم (وكان مجير الدين وقتها في سن ١٢ عاماً تقريباً)، وحتى عام ٩٠٠هـ الذي سبق وفاة قايتباي بسنة، قدم هذا الكاتب صورة صادقة عن عهد تراجع وتدهور على مختلف الأصعدة الاقتصادية والاجتماعية والدينية، بل وحتى العلمية. ففي ظل تنافس مملوكي مع القوة العثمانية الصاعدة في آسيا الصغرى، رغم الأصول التركية التي جمعت الدولتين، ورغم الأخطار المشتركة المتمثلة في التتار ثم في المد الأوروبي الجديد بقيادة البرتغاليين، قام قايتباي بفرض ضرائب باهظة^٢ للإنفاق على إقامة منشآت عامة وتجريد حملات ضد بايزيد الثاني العثماني، مما أسهم في تراجع الحالة الاقتصادية في مصر والشام، وانتشار الفساد، وظهور شرور اجتماعية عديدة.

ومن مظاهر هذا التراجع العام الذي سجله هذا المؤرخ حرص عدد من علماء وفقهاء ذلك العصر على تولي المناصب الرسمية والحصول على الخلع والتشريفات مما أسهم في تفاقم المنازعات بينهم وجرأة العامة على بعضهم. كذلك كثرت المناكفات مع اليهود والنصارى حول منشآتهم الدينية^٣ بغير حق أحياناً^٤ والتي كان يتم فيها تشجيع الجهلاء على التدخل بعنف، مما أسهم في ظهور فتن ومحن طالت البريء والمجرم. علاوة على ذلك يسجل الحنبلي تعرض فلسطين ومصر لسنوات جذب وغلاء^٥ بسبب انتشار وباء الطاعون، مع كثرة تغيير النواب والنظار في القدس والخليل، بصفة خاصة، واتهامهم بالتعسف في جمع الضرائب. ومن أهم السلبيات الاجتماعية التي تظهر من ثنايا كتابته

^١ مجير الدين: القاضي أبو اليمن الحنبلي العليمي (ت ٩٢٧هـ)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، المجلد الثاني، مكتبة نديس، الخليل، ٢٠٠٩م/١٤٣٠هـ، ج ٢، بداية من ص ٤٠٧.

^٢ المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٧٠ و ٤٧٦.

^٣ المرجع السابق، ص ٤٧٦ وما ليلها.

^٤ المرجع السابق، ص ٤٢٦.

^٥ المرجع السابق، ص ٤٦٤ - ٤٦٦، وكذلك ص ٤٧٥.

العفوية بعض التعصب لدى أهل القدس تجاه أبناء مدينتهم، وأيضاً ميلهم للاعتقاد في الكرامات والرؤى بما يتجاوز المنطق أحياناً.^١

ورغم أن المؤرخ القاضي الحنبلي أشار إلى النزاع الإقليمي بين مليكه قايتباي، وبايزيد العثماني،^٢ ورحب بالصلح اللاحق بينهما،^٣ كعادة أهل الشام، فإنه لم يذكر أية خلفيات عن هذا النزاع، مما قد يشير إلى حرصه على تجنب التعرض لأخطاء الحاكم. كذلك لم يتحدث مجير الدين عن التحولات التاريخية المهمة على المستوى الإقليمي والدولي مثل حركة الغزو والكشوف البرتغالية والإسبانية وتأثيراتها من حيث سقوط غرناطة وتقليص تجارة المماليك وتهديد البحر الأحمر، ومثل ظهور الدولة الصفوية الشيعية. فهل تعد هذه إشارات إلى ضيق أفق معارفه العامة وانحصارها في دائرة العلوم الدينية النقلية، التي دار في إطارها أغلب علماء ذلك العصر؟ أم أنها تمثل صورة واقعية لعصر اضمحلال يركز فيه أهل العلم والكتاب على ذكر تراجم العلماء والسلاطين، وإفراد الصفحات الطوال لأعمالهم، ومنشآتهم العمرانية، دون معالجة صادقة للأزمات الاجتماعية والثقافية التي تعاني منها الأمة؟

^١ من ذلك ما ورد في سيرة أبي ثور، انظر المرجع السابق، ص ٢٣٨-٢٣٩.

^٢ المرجع السابق، ص ٤٥٩ و ٤٧٠.

^٣ المرجع السابق، ص ٤٨٥.

٩- شهادة شاهد من أهلها على مظالم أول حكومة مسيحية في الأرض المقدسة منذ أيام الصليبيين

أعدت دار الكتب والوثائق القومية في مصر في عام ٢٠١٥م نشر مذكرات راهبة بريطانية اسمها فرنسس إملي نيوتن Frances Emily Newton عملت في مجال الخدمة الدينية والديوية في فلسطين إبان الاحتلال البريطاني لمصر وتحديدا منذ سنة ١٨٩٥م، ووصفت بأنها "صديقة العرب". هذه المذكرات ترجمها أ. وديع البستاني، ونشرت في بيروت عام ١٩٤٧ تحت عنوان (خمسون عاما في فلسطين)، وهي تعطي لمحة عن الدور الإنساني لبعض المبشرين الأجانب الذين استشعروا مدى الظلم الذي يمارسه الاحتلال البريطاني ضد أهل فلسطين في إيصال صوت الفلسطينيين المغلوبين على أمرهم إلى مسامع الرأي العام البريطاني، والعالم، مما كلفهم بعض الأذى من جانب السلطات المحتلة.

قالت نيوتن تحت عنوان فرعي، "النور الكشاف" ضمن الفصل ٣٠ من كتابها،^١ إنها قامت بناء على طلب من مطران طائفها الدينية في القدس، بالتجوال في بعض الأنحاء والتحقيق والتدقيق فتأكدت -لحزنها- من صحة ما كان ينسب إلى البريطانيين من تعسف وإرهاق في معاملة العرب باسم التأديب والتطويع ورد الأمن إلى نصابه. وأضافت أنها وضعت رسالة بعنوان "النور الكشاف" تكشف عن أعمال السلطات المحتلة في فلسطين ردا على تبريرات الحكومة البريطانية أمام البرلمان البريطاني. وتنقل نيوتن الآتي:

"في شهر أيلول من سنة ١٩٣٨، كتب لي صديق من فلسطين ينهاي عن القدوم، ويذكر من الحوادث كل مصداق لما كان يذيعه المركز العربي بلندن من معلومات بمثل الضوء الكشاف وغيرها من النشرات، قال الصديق، وكان بريطانيا:

"تجدين ما لا يطاق، إرهابا بريطانيا أشد من الإرهاب، لا يصدقه بريطاني مدني مثلي لولا أنه سامع بعينه. قتل بوليس بريطاني، فنسفوا بلدة جنين نسفا، وما بالغ البيان الرسمي حيث أحصى ما هدم من المساكن مئة وخمسين. وما قولك في أشخاص ركضوا هروبا للنجاة فأطلقت عليهم النار فسقطوا؟ أما ذلك دأب النازية؟ أما التعذيب ابتزازا للإقرار، فمما تشمئز لوصفه نفس الأبي، وما أريد به إلا إلقاء الرعب في نفوس الناس، لا عقاب المذنب. وما وقفوا عند تدمير الدور والبيوت تنكيلا، بل تسفلوا فنهبوا وسلبوا نقودا ومجوهرات. ويستحيل أن أوقفك على كل ما هو جار من مثل ذلك. وما قولك في عمال عرب شجعان أوفياء يقضون النهار في إصلاح أسلاك التلفون، عرضة لرصاص الثوار، عاد بعضهم مساء فوجدوا بيوتهم أنقاضا، وقد نسفها الجنود البريطانيون. تلك حوادث تزيد الثوار

^١ فرنسس إملي نيوتن، خمسون عاما في فلسطين، ترجمة وديع البستاني، دار الكتب والوثائق المصرية، القاهرة، ٢٠١٥م/١٤٣٦هـ،

نقمة وبأسا. ويوم السبت كان إطلاق النار هنا في يافا غريبا في بابه، فكل من لاح هدف. وكان من ضحايا هذا المروق من الإنسانية مهندس مساح مثقف لسانه الإنكليزية، من الموظفين، وبنت صغيرة في السابعة في يوم واحد. وهذا الصباح تأخرت علي جريدتي وسألت فعلمت أن الصبي قتل وهو آت بها."

وتعقب نيوتن بعد هذا النقل بقولها "منذ أيام الصليبيين، هذه أول حكومة مسيحية في البلاد المقدسة . . . اللهم اغفر لنا . . ."

انتهى الاقتباس. جدير بالذكر أن الاحتلال البريطاني لمصر بدأ عام ١٨٨٢ ولم ينته إلا عام ١٩٥٤م. ولكن وحتى قبل هذه السنوات الـ ٧٠، أرسلت بريطانيا بعثة "صندوق اكتشاف فلسطين" منذ عام ١٨٧١ لكي تبحث عن الآثار التاريخية التي تؤكد قصص الكتاب المقدس، استمرارا لأبحاث الكثير من القساوسة والرحالة والضباط والجواسيس الذين رسموا وخططوا فلسطين وآثارها. وخلال سنوات احتلال مصر السبعين، وانطلاقا من أرضها، احتلت بريطانيا القدس وفلسطين عام ١٩١٧ ولمدة ٣٠ عاما، ثم عملت على تأسيس دولة "إسرائيل" الصهيونية اليهودية على أرض فلسطين بعد انسحابها عام ١٩٤٨، حيث احتل الصهاينة القدس الغربية وأكثر من ثلاثة أرباع فلسطين في ذلك العام، ثم احتلت دولة "إسرائيل" كل القدس وفلسطين وأجزاء من مصر بعد نحو ٢٠ عاما أخرى. ولا زالت بريطانيا ومستعمرتها السابقة -الولايات المتحدة الأمريكية- تلعبان دورا رئيسيا في استمرار الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين والهيمنة الغربية على مصر.

المصادر والمراجع

أولاً: الكتب:

١. ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، المجلد ١١-١٢، الجزء ١١، دار الحديث، القاهرة، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م
٢. الخليلي: شمس الدين محمد بن محمد بن شرف الدين (ت ١١٤٧هـ/١٧٣٤م)، تاريخ القدس والخليل عليه السلام، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م
٣. الصلابي: علي محمد، دولة السلاجقة، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ٢٠٠٦م/١٤٢٧هـ (نسخة إلكترونية على الرابط <http://library.foraqsa.com/?p=5430> - آخر اتصال بتاريخ ٤-٨-٢٠١٩م)
٤. الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية، المجلد الثالث: الأوج والازدهار - القسم الثاني: التنظيم والازدهار الحضاري، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - فبراير ٢٠١٠م
٥. المقدسي: شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء البشاري (ت ٣٨٠هـ)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار صادر، بيروت، نقلا عن مطبعة بريل في مدينة ليدن، ١٩٠٦م
٦. المقدسي: شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل ابن إبراهيم الشافعي (ت ٦٦٥هـ)، الروضتين في أخبار الدولتين، الجزء الأول، دار الجيل، بيروت
٧. المقدسي: شهاب الدين أبو محمود بن تميم (ت ٧٦٥هـ)، مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م
٨. الواقدي: محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧هـ)، فتوح الشام، الجزء الأول، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية ٢٠١٠م
٩. دليل المسجد الأقصى المبارك (نسخة إلكترونية على مكتبة الأقصى الشبكية <http://library.foraqsa.com/?p=5433> - آخر اتصال به بتاريخ ٤-٨-٢٠١٩م)
١٠. رحلة الراهب سيمون إلى مصر والشام، ترجمة محمد حرب، كتاب الهلال، العدد ٦٧٧، مايو ٢٠٠٧، دار الهلال، القاهرة

١١. عبدالله معروف عمر، المدخل إلى دراسة المسجد الأقصى المبارك، دار العلم للملايين، بيروت ٢٠٠٩م
١٢. فرنسس إملي نيوتن، خمسون عاما في فلسطين، ترجمة وديع البستاني، دار الكتب والوثائق المصرية، القاهرة، ٢٠١٥م/١٤٣٦هـ
١٣. ماجد عرسان الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، دار القلم، دبي، ٢٠٠٩م/١٤٣٠هـ
١٤. مجير الدين: القاضي أبو اليمن الحنبلي العلمي (ت ٩٢٧هـ)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، المجلد الثاني، مكتبة دنديس، الخليل، ٢٠٠٩م/١٤٣٠هـ
١٥. محمد هاشم موسى غوشة، تاريخ المسجد الأقصى، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، فلسطين، ٢٠٠٢م/١٤٢٣هـ (نسخة إلكترونية على مكتبة الأقصى الشبكية <http://library.foraqsa.com/?p=3539> - آخر اتصال بتاريخ ٢٠١٩-٨-٤م)

ثانيا: المواقع الشبكية:

- <http://www.foraqsa.com/index.php/aqsa-character/aqsa-facts> - آخر اتصال بتاريخ ٢٠١٩-٨م
- http://library.foraqsa.com/wp-content/uploads/2016/01/AI-Aqsa_MosqueAerial_view_2007_02.jpg آخر اتصال بتاريخ ٢٠١٩-٨-٤م